المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العدد 16 شباط 2025
No.16 Feb 2025

ثورة القصيدة العباسية (أبو تمام انموذجًا)

م.د. غزوة كاظم حيال
الايميل :kazmghzwt722@gmail.com
جامعة سومر / كلية التربية الاساسية/ قسم اللغة العربية

الملخص

تتناول الباحثة في بحثها الموسوم (ثورة القصيدة العباسية، الشاعر أبو تمام انموذجًا)، التطورات التي طرأت على بنية القصيدة العباسية، شكلًا ومضمونًا، لكونها، تنتمي لما سمي بالعصر الذهبي في مجال الشعر والميادين الأخرى. وسبب اختيار هذا الموضوع هو أن الدراسات والجهود السابقة، اهتمت بجوانب جمالية ومضامين واقعية، لم ينضح عنها أسلوب الشاعر ولم تتجلى فيها قدرته الإبداعية، بل ظل اسمه بعيدًا عن قوائم أساطين الشعراء المحدثين. تجلى في هذه الدراسة أن أبا تمام هو من أبرز المبدعين العصر العباسي ، فهو من حلق بالقصيدة نحو التجديد والإبداع ومغايرة الشعراء، كما استنتجت الباحثة في دراستها، أن التحولات التي احدثها الشاعر هي إيذان ببداية الثورة وحداثة الشعر في عصره. فمذهب الإبداع لديه ، مذهب ينطلق فيه من التراث الشعري القديم ، متجاوز فيه النمط القديم، فاتحًا أبوابًا وافاقًا جديدة في الشعر التقليدي السائد أنذاك. كما لم تغفل الباحثة عن علاقة أبي تمام بنماذج الشعر القديم ولا سيما الشعر الجاهلي، فما زالت تلك القصائد نصب عينيه، آخذا منها المعاني والصور، ليخرجها بشكل أخر، يرسم فيه رونق اللغة والأسلوب القديم باسلوب حديث يجسد فيه طغيان الترف والبذخ والمجون الذي ساد في العصر الذهبي وصار مادة دسمة تتناولها أقلام الأدباء . وفي الختام، تضع الباحثة هذه الدراسة في ميزان النقد والتحليل، وكلها أمل أن تقدم شيئًا يسيرًا يبصر فيه القارئ، ذلك التراث الثر الذي انمازت به حضارتنا العربية والإسلامية.

الكلمات المفتاحية: ثورة القصيدة، أبو تمام، شعر أبو تمام، التجديد والإبداع ، العصر العباسي.

The development of Abbasid poetry ،The choice of the poet Abu Tammam

Kazwa.K .Heal
University of Sumer \ Collage of Basic Education Abstract

Abu Tammam is considered one of the poets of the Abbasid era, who elevated the poem towards renewal, creativity, and distinction from other poets. The transformations he introduced marked the beginning of a revolution and poetic modernity that defined this era. His creative approach stems from classical poetic heritage, yet he sought to surpass it and open new horizons for poetry. Critics received his poetry with mixed reactions—some praised it, while others rejected it, accusing him of corrupting literary taste due to his departure from the traditional form of classical poetry. This represents a new school of thought and a rebellion against the old poetic norms. For Abu Tammam, modernity was about breaking with the old and initiating a revolution against it. It involved practices that suggested deviating from the prevailing standards and conventions, moving toward innovation to interpret this divergence and shift, thus provoking theoretical discourse as he laid the foundations for modernity as a renewal of vision and change from the established norms. His creative approach was one that sought to surpass classical poetic heritage, opening new horizons for poetry.The Abbasid poet placed the model of classical poetry

before his eyes and transformed its themes and images to suit his era, adding to it a multitude of new themes and images, ultimately creating his modern model.

Keywords: Abbasid era revolution, Abu Tammam, AbuTammam poetic

المقدمة

بدأ العصر العباسي مرحلة جديدة تختلف تمامًا عن العصر الأموي ، لأن الاسرة العباسية تميزت عن غيرها بالحياة المدنية والتحضر الذي لم تألفه أسر العصر الأموي؛ لذا ازدهر الأدب بفضل التطورات التي شهدها هذا العصر ، وانفتح على الحضارات الاخرى ومعلنا التأثر والتأثير وتلاقح أفكار الأدباء العرب مع نظرائهم، مما أدى إلى بروز ظاهرة التجديد في الشعر وخروجه عن القوالب التقليدية التي كانت سائدة أبان العصر الأموي والجاهلي. ومن هذا المنطلق، انمازت القصيدة العباسية عن سواها، بحساسيتها الجمالية تجاه التطور الفكري والثقافي.

وتعد المدة ما بين 132- 334 .هجرية نقطة الشروع والإيذان ببدء التغيرات السياسية والثقافية والأدبية، ففي هذه المدة ازدهرت العلوم والفنون الادبية ، وفيها سطع فحول الأدب من شعراء وعلماء وكتاب. كان لهم دور في هذه النهضة على مر العصور.(1)

إن التغير الذي أصاب دمشق لتحل محلها بغداد، شمل النواحي الفكرية والاجتماعية والسياسية، قبل أن يكون تغيرا ديموقرافيا. فقد برزت بغداد كمركز يؤمه الناس، اصبحت قبلة للأدب، فاقت ما وصلت إليه عاصمة الدولة الأموية التي اهلكتها النزاعات والصراعات المختلفة. كما اختلفت بغداد حتى في مظهرها الخارجي الذي لم يعد مشابها للطابع القديم لا باللباس أو بالفكر ولا بالثقافة أوالسياسة. فتلك الحياة الجديدة أنقسمت على قسمين: الأول غلبت عليه الدعة ورغيد العيش والترف والموسيقى والطرب والقسم الاخر ترتشف السماء لحافًا والأرض وسادة، تعيش في فقر مدقع، اهلك إبدانها الخاوية شظف العيش وهي تستظل تحت ظلال القصور العالية والمساجد الفاخرة.

ولاشك في أن هذا الأزدهار الحضاري والتقدم العلمي والثقافي الذي شهده العصر العباسي ، كان لهما أثر في تطور الشعر وازدهاره، فقد ترك كل منهما صداه في هذا العصر فظهرت فيه مجالات متعددة للقول ، كان للشعراء حظ وافر منها، إذ " راح الخلفاء يشجعون الحركة العلمية ويدعونها ويبالغون في إكرام العلماء والأدباء وتقريبهم اليهم وأصبح العلم والأدب أداة المناصب العالية والحياة والنفوذ . ويتنافس العظماء في تكريم البلغاء وانتشار دور العلم ومتولي حركة الترجمة إلى العربية " (2). وقد ساعد التحول الاجتماعي الذي شهده العصر العباسي على ظهور عدد من الأغراض الشعرية ، إذ تناول كثير من الشعراء قضايا مثل اللهو والمجون والخمريات، بيد أن هذه الموبقات كانت قد نالت استحسان الطبقة المترفة وعوائل السلطة والمتنفذين، معلنة أن الشعر صار وسيلة متاحة لإشباع تلك الرغبات.

وكان لدى كثير من الشعراء أستعداد لتقبل هذه التغيرات السياسية والثقافية والاجتماعية ، فأنقسموا على قسمين بين من يواكب التجديد ومن يرفضه0 فقد زعم دعاة التجديد والثورة الشعرية أن الأسلوب الشعري القديم لايتناسب مع الترف والعيش الرغيد وحياة الحضر التي ينعمون بها. فحياتهم الجديدة لاتمت الى البادية والصحراء والنياق والرحيل بصلة. على العكس من أصحاب المواقف المتشددة الذين طغت على أعمالهم الأدبية النزعة العصبية التي ترى من الثورة الشعرية عنصر انتقاص من الموروث الأصيل، فأبو نواس مثلا، لم يغادر الأسلوب التقليدي للقصيدة القديمة، وكذلك لم يفلت أبو تمام من الأطلال التي انتهجها شعراء العصر الجاهلي.

وبصورة أخرى ، يمكن ايجاز مظاهر التجديد في الحياة الأدبية والشعرية في العصر العباسي بعدة عناصر أهمها ظهور المديح وتبجيل شخصيات بعينها، وتمجيد أفعالها ليتجاوز الأطر التي كانت معهودة في الفترات السابقة. فقد انمازت قصائد المديح بكونها وثائق تعلي من شأن الممدوح ، تسطر كلماتها بأروع المعاني، يحرص فيها الشاعر على إبراز الفضائل والسمات الحسنة وسداد الرأي والتعصب أحيانا لفكر أو جهة أو رأي.

كذلك تجلت مظاهر الهجاء في العصر العباسي في مجالس المسامرة، لتجعل من الشعر أيقونة تعلق بالاذهان وكأنها آفة عظيمة تتبع بؤر الفساد وتسخر من البعض بقصد صادق المرأد أو ربما نتيجة لخلافات معينة .

ومن أغراض التجديد في الشعر العباسي هو الرثاء. اذ قام كثير من الشعراء باسلوب إبداعي الغرض منه استمالة مشاعر الناس وعواطفهم، بتذكيرهم بشخصية معينة أو حدث معين ، يثار من كلماتها احاسيس دفينة وتتناغم مع لواعج القلوب ويكون الهدف منها أثارة الحمية او تخليد شخصية.

وهنالك مظاهرأخرى غير التي ذكرت، ومنها الوصف والغزل والشعر التعليمي والصناعات اللفظية والاسلوبية والرقة الشعرية في اختيار الألفاظ الرشيقة والأوزان المستحدثة ودخول الغريب من الألفاظ الأجنبية ولا سيما الفارسية والتركية وشيوع المصطلحات العلمية ودخول الافكار الفلسفية ودخول العلوم المحدثة والجديدة والأفكار المقتضبة. ولا شك أن للترجمة دور كبير قد اسهم في ثورة القصيدة ولكن يبقى الاحتكاك الاجتماعي هو السهم الأوفر في صقل القصيدة العباسية وإظهارها بهذا الشكل. فتلك الثقافات الوافدة ولا سيما الفارسية منها، قد امتزجت بالثقافة العربية لدرجة أن بعض الشعراء كان قد أجاد اللغة الفارسية وكتب بها. ولكن يدرك متتبع الأدب أن الحداثة والثورة الشعرية لم تعلن راية النصر على القديم ، فالشعر العربي بقي محافظًا على عموده الباسق متمسكا بتقاليده التي تمت للحياة بصلات كثيرة.

وعودا على ما اسلفنا، يتفق النقاد والدارسون أن العصر العباسي من ارقى العصور ثقافيًّا وادبيًّا، واكثرها نتاجا للأدب وفي الخصوص الشعر، وعلى الرغم من كثرة الدراسات النقدية والأدبية التي تناولت ذلك العصر واساطينه، تبقى الحاجة قائمة لمزيد من الدراسات التفحصية والكشفية عن خبايا ذلك العصر، ومن هنا تنطلق الباحثة في اختيارها لموضوعها، وهي تسعى لكشف ملامح الحداثة، والثورة والتطور الذي طرأ على القصيدة العباسية، ساعية إلى كشف الصراع بين الشعر القديم والجديد وعلاقته كل منهما بمناحي الحياة المختلفة. راجيا الوقوف بثبات على أشكال التجديد الذي اكتست به القصيدة الشعرية.

ثورة القصيدة عند الشاعر أبي تمام

كان أبو تمام من الشعراء المجددين في العصر العباسي ، فلديه ثقافة واسعة متعددة الجوانب، اسهمت بتفرد بمذهب شعري خاص به " اخترعه وصار فيه اولا واماما متبوعًا ، واشتهر به حتى قيل مذهب أبي تمام وسلك الناس نهجه ، واقتفوا اثره ، كما أنه شديد التكلف ، صاحب صنعة يستكره الألفاظ والمعاني وشعره لايشبه شعر الأوائل ولا طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة "[3] ، وكما وصفه القدماء رأس في الشعر وصاحب مدرسة ومبتدى مذهب [4] ، وقد نظر النقاد في شعره حتى وجدوا أنه يكثر من البديع حد الإسراف، وهذا يمثل مذهبًا جديدًا وخروجًا على الشعر القديم وهذه ثورة وحداثة فيما يتعلق بالشاعر ؛ لأن الحداثة هي تحطيم القديم وإقامة ثورة عليه ، ويعرفها المسدي بقوله " هي الممارسة التي توحي بالعدول عن النمط السائد والمعيار المطرد فيتجه صوب المواصفة لتفسير هذا التجاوز والانزياح إلى أن يستفز في التنظير حين يؤسس قواعد الحداثة باعتبارها تجديدا للرؤية وتغييرا للمطرد "[5] فالحداثة بدأت منذ عصره ، أي العصر العباسي، ففي هذا العصر قامت الثورة على القديم، أبدأها شعراء العصر العباسي في نبذهم للتقاليد القديمة ؛ لان الشعر

بنظرهم هو روح العصر ورونقه الذي تهدأ له النفوس وتركن له الاروح. وبفضل التطورات التي حصلت في هذا العصر من لعب ولهو وخمرة ومجون، فلابد للشعر أن يعبر عن ذلك. فإبداع أبو تمام وبدأت ثورته من ذلك المبدأ، فطور في الموضوعات القديمة، وحلق في فضاء التجديد ومغايرة القديم. واما الحداثة من منظور ادونيس " رؤيا وكشف وخلق ، فمن طبيعة الشعر الذي هو نبوءة ورؤيا وخلق ان لا يقبل اي عالم مغلق نهائي وان لاينحر فيه ، بل يفجره ويتخطاه ، فالشعر هو البحث الذي لانهاية له "[6] فادونيس يرى أن الشعر لابد ان يتطور ولايقف عند حدود كونه رؤيا ونبوة وظيفته الاختراع والتطور فالإبداع هو " فعل النشاط الإنساني الذي يهدم الراهن المعروف ويولد الجديد غير المعروف "[7]

لذا فالإبداع الذي جاء به ابي تمام بداية الحداثة الشعرية ، وقيام الثورة على القديم ، ليس بتحطيمه ، إنما الانطلاق منه، وكما عبر عن ذلك عبد القادر الرباعي بقوله :" أما أبو تمام فذو اتجاه إبداعي يتكى فيه على نفسه ، ويرتبط فيه بجمال صعب إدراكه ، وفي اخراجه ، ويصدر فيه عن ذوق خاص ومفهوم شعري خاص "[8] فمذهب الإبداع لديه ، مذهب ينطلق فيه من التراث الشعري القديم، ويفتح افقاً جديدة للشعر ، وقد اشار ادونيس إلى ذلك بقوله " لقد ادرك أبو تمام ، والمجددون طبيعة تراثهم الشعري وجوهره ، واحتفظوا بالقسم الاكبر من تقنيته وخصائصه ، لكن ثان كل مبدع رفضوا ان يكرروا الشعر الذي سبقهم ؛ لانهم ادركوا بالحدس أن التكرار في الشعر لانفع منه على الصعيد الفني ، ولابقاء له ، هكذا عبروا بطريقة جديدة ، من دون أن يقطعوا اتصالهم بجوهر الماضي ، فمثل هذا الانقطاع يقتل الشعر ؛ لأن الشعر يحيا كذلك بقوة الرفع من تراثه "[9]

إن تلقي النقاد لشعر أبي تمام مختلف تمامًا، فمنهم من استحسن شعره ، ومنهم من رفضه ، وهناك من خيب إبداع أبي تمام أفاق توقع بعض اللغويين ، فذاك ابن الإعرابي الذي قال : " إن كان هذا شعرًا فما قالته العرب باطل " [10] . وهنا يعني ان إبداع أبو تمام لم يرضِ بعض النقاد ؛ لأن منهم من يرى أنه مخالف للتقاليد القديمة 0ومنهم من يرى بأن افراطه في الصنعة هو من ادى الى نفور النقاد واللغويين عنه ، لاسيما تلك الألفاظ المتعلقة بغرض المدح ويقول ابن سنان الخفاجي " ومن الألفاظ ألا يعبر عن المدح بالالفاظ المستعملة في الذم ولا في الالفاظ اللائقة لذلك الغرض ، وفي موضع الجد الفاظه ، وفي موضع الهزل الفاظه "[11]ففي وقوفه على الطلل والتعبير عنه :

مِن سَجايا الطُلولِ أَلّا تُجيبا

فَصَوابٌ مِن مُقلَةٍ أَنتَصوبا

فَاِسأَلنَها وَاِجعَل بُكاكَ جَواباً

تَجِدِ الشَوقَ سائِلاً وَمُجيبا[12]

بدأ أبو تمام مقدمته ب (سجايا الطلول) ، اي يذكر صفات الطلل وادراك قيمتها لدى الشاعر العربي قبله وخاصة الشاعر الجاهلي ، فهي تمثل جزءًا من حياته، وحنينه الى الديار الخاوية، وما تبقى من الاطلال واثار المعشوق، فالشاعر في هذين البيتين، يقدم صورة صادقة لما يشعر به ويستحضر الأطلال التي خلت من التكليف وكأنه امرو القيس اوعنترة ابن شداد او طرفة ابن العبد، مؤكدا أن الروح الشاعرية لديه مازالت تحيا بنفحات التراث الشعري القديم، وتنسجم مع الحنين والعشق وركام الديار ودمنتها المغبرة ينظم الشاعر ابياته بخصائص فنية وجمالية تتشابه تماما مع الألفاظ والتراكيب للشعر الجاهلي وبحوره وأوزانه :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد(13)

وهنا تتشابه الصورة الشعرية التي يقدمها أبو تمام مع التي أتى بها طرفة ابن العبد في بيته المذكور آنفا ، فكلاهما قد استهل القصيدة بالأطلال والحنين والشوق . وكلاهما اتكأ على شوقه وحنينه واتخذاه وسيلة افصاح عن ما يدور في اعماق الروح، فالشوق للأحبة الذين قنطوا بها مصرحاً بأنها لاتجيب سائلها ؛إلاَّ أن الشاعر مهما إبدع وجدد في الموضوعات القديمة لايتخلص منها نهائيا بل يجددها وينطلق منها0وكما يقول أحد الباحثين " لقد ظل الطلل الخشبة الصلب التي يحملها الشعر العربي على عاتقه ، وإن حاول المحدثون التحلل منها ، إلا أن الطلل ظل يعمرالقصيدة ويسكنها ، حتى إن لم يظهر على مطلعها ؛لأن الغلبة انصرفت عن الوصف الحسي ولكنها لم تنصرف عن فلسفة التحول والزوال والفناء "[14]واذا بمقدمة طللية أخرى :

الدارُ ناطقةٌ وليست تنطقُ بدثورها أن الجديدَ سيخلقُ

دمنٌ تجمَعَتِ النوى َ في ربعِها وتَفرقت فيها السحابُ الفرقُ[15]

هنا الشاعر أتبع من سبقه في تعبيره عن الأطلال ، وقد عرف أن الشاعر الذي لايعتمد على نتاجات الآخرون لايعد شاعرًا ذلك ماأشار إليه ابن خلدون " اجتناب الشعر أولى بمن لم يكن محفوظًا ، ثم الأمتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسيج على المنوال يقبل على النظم وبالإكثار منه ، وربما يقال :إن من شروطه النسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومها الحرفية الظاهرة ، إذ هي صادرة عن إستعمالها بعينها فاذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها انتقشت الأسلوب فيها كأنه منوال يؤخذبالنسيج عليه بامثالها من الكلمات " (16) فأصبح يستنطق الدار ، ويرد على نفسه بأن كل شيء لايخلق من عدم ، وأن هذه الدار الخالية سوف ترجع بأهلها ، كأنه يتحدث عن الإبداع والحداثة من خلال قوله (بدثورها أن الجديد سيخلق)وفي أبيات أخرى يقول فيها الشاعر :

قِف بالطلول الدارسات ِعُلاثا أمست حِبَالُ قِطِينهن رثاثا

قَسَمَ الزمانُ رُبُوعها بَينَ الصبا وقبُولها ودَبُورها أثلاثا

فتابدت مِن كُل مُخطفةِالحَشَا غيداء تُكسَى يَارَقا ورعاثا[17]

أن المتفحص في هذه الأبيات، يدرك المقاربة الشعرية بين أبي تمام والجاهلي. فالمقاربة هنا لم تحِل ابيات أبي تمام الى لوحة فنية قديمة، بل على العكس، خلق فيها روح التجديد إذ أن الشاعر يتجاوز فيها الفئة الكلاسكية (الشعر الجاهلي) ويلتحق بركب الأدب العالمي إن صح التعبير.

لقد أخذ الشاعر الطلل من الشعراء الجاهليين ، وعبر عنه في اشعاره ، وذلك عن وعي وإدراك ، فنراه مرة يتبع الشعراء الجاهليين، ومره أخرى يأتي بمعانٍ مبتدعة للتعبير عنها فيقول :

اطلالهم سلَبَت دُماها الهيفا واستبدَلت وحشاً بِهن عُكوفا

يامنزلااعطى الحوادث حكمهَا لامَطلَ في عدةٍ وَلاتسويفا

أرسى بناديكَ النَدى وَتَنَفست نَفَساً بِعَقَوتِك الرياحُ ضَعيفا

شعف الغمامُ بعَرصَتيَك وَربَما رَوت رُباكَ الهائم االمشغوفا

وَهي الحوادِثَ لَم تَزل نكباتُها يألفنَ رَبَع المنزلِ المَألوفا(18)

وهنا أحدث أبو تمام ثورة حقيقية تناهض النسق الأدبي الذي سارت عليه القصيدة الجاهلية، ورغم أن الشاعر لم يخرج عن المألوف من حيث الأطلال،إلا أنه جاء بأسلوبه الخاص الذي يمكن أن يكون مدرسة ادبية لما يتبعه على نفسه النهج. فهو قد كشف عن إمكانية اللغة والقول الشعري على أحداث التغيير، وإلحاق الصدمة الثورية بصيغة الإبداع الأدبي الناضج على صعيد التلقي.

وفي أبيات أخرى يلعب التقابل دورًا بارزًا بين المكان والزمان ، وبين الطلل وصروف الدهر فيقول:

ليس الوقوف بكف شوقك فأنزل تبلل غليلا بالدُموعِ فتبللِ

فلعلَ عبرةَ ساعةٍ اذريتها تشفيكَ مِن إرباب وجد مُحولِ

وَلَقَد سَلَوتَ لَوَأن داراً لَم تَلُح وحَلُمتَ لَو أن الهوى لَم يَجهلِ

ولطالما أمسى فُؤادك منزِلاً ومحلةٌ الظِباءِ ذاك المنزِلِ[19]

وفي هذه الابيات صور الشاعر حياة الحزن والفراق تصويرًا دقيقًا واصفًا في ذلك سيل الدموع والسلوى. فأبو تمام في وقوفه على الطلل مختلف عن من سبقه من الشعراء، فهو لايبكي على هذه الأطلال ويتحسر عليها كالشاعر الجاهلي ، وإنما وقوفه على الطلل (منزاحِ) عما درج عليه الشعراء الآخرون ، فهو يسأل ويتمنى ، ويتعجب من تصريفات الزمان وما أحدثت من تغيرات غيرت ملامحها ليحل بها الخرب بدلا عن النماء والحياة وهذه من ملامح التجديد في شعره التي ظهرت جلية كعوارض أثرت في اسلوبه ومعانيه في قصيدة يمدح فيها ابن الزيات :

ديمة سمحة القياد سكوبُ مستغيبُ بها الثرى المركوبُ

لُو سَعَت بقعةٌ لاعظام نعمى لسعىَ نحوها المكان الجديبُ

لذ شوبوبها وطابَ فلو تس طيعُ قامت فعانقتهاَ القلوبُ[20]

فالشاعر يبدأ قصيدته بوصف الطبيعة وماحولها وقد اتى بأستعارة مكنية شبه فيها السحابة بالناقة الذلول وشبه الثري بالإنسان العطشان . وهذه التشبيهات التي جاء بهاالشاعر، منهم من استحسنها، ومنهم من رفضها وعدها ثقلا يفسد الذوق الأدبي. الأ أن هذه الاستعارة هي أهم اشكال الصورة التي لعبت دوراً كبيراً في الشعر ، ويؤكد كمال أبو ديب على الاهمية التي تتمتع بها الأستعارة في الشعر ، وأن الشعر لايقوم دونها ، ففي تصوره هذا بوأ الاستعارة منزلة أصبحت فيه ترادف الشعرية ومن هنا عدت الاستعارة جنسًا بلاغيًّا تتكون من الصور البيانية الأخرى جميعًا بأنواعها كافة [21]وفي أبيات يمدح فيها الشاعر ابا سعيد الثغري :

زرتَ الخليفةَ زورةً ميمونةً مذكورةً قطُعت رَجاءَ الحُسدِ

يَتنفَسونَ فَتنثَني لَهَواتُهم مِن جَمرةِالحَسدِ التي لم تَبرُدِ

نَفَسوكَ فِالتمسوا نَداكَ فَحاولو جَبَلا يَزِل صَفيحةُ بَالمَصعدَ

درستَ صفائِحُ كَيدهِم فَكَانما أذكَرنَ أطلالا بِبُرَقَةِ ثَهمَدِ[22]

تحمل هذه الأبيات مزيجًا من المزايا التي كانت سائدة في العصرين الأموي والجاهلي، فالشعر في كلاهما قد ساد عليه نوع من المدح وتمجيد الممدوح، فالشاعر قد اتقن جزالة الأسلوب ورونقه متمسكًا بالقصيدة التراثية وبالخصوص البيت الأخير الذي يتأرجح بين

القديم الأموي والجديد العباسي كما مر ذكره سابقا. فالشاعر في هذه الأبيات المدحية يستدعي معلقة طرفة بن العبد ويشبه فيها أعداء ممدوحه ، الذي وصف مكائدهم للممدوح ببرقة ثهمد؛ لان زيارة الممدوح للخليفة عطلت خططهم ، و محاولاتهم باء ت بالفشل ، فالشاعر مهما إبدع ، وطور في قصيدته وأراد ان يبتعد عن الشعر القديم والقصائد التي تعبر عن الطلل يرجع ويستدعيها؛ذلك نتيجه الثروة اللغوية التي يمتلكها ؛والإبداع التي لاينطلق من فراغ وانما من المخزون الثقافي الذي يمتكله الشاعر.

في قصيدة يمدح الحسن بن السهيل :

وغربتُ حتى لَم أجِد ذكرَ مَشرِق وَشرقتُ حَتى قَد نَسيتُ المَغاربا

خَطوب إذا لاقيتهن رَددنَني جَرِيحا كَأني قَد لَقيتُ الكَتائِبا

وَقَد يَكسبهمُ السيفُ المُسمى مَنِية وَقد يَرجعُ المرءُ المُظفرُ خَائبا

وَكنتُ امرء القى الزمَانَ مُسَالِما فاليتُلاألقاهُ إلا مُحَاربا[23]

كان لثقافة أبي تمام دور كبير في شعر المديح فقد ارتفع شأنه علميًا وأدبيًا،"أبو تمام شاعر على المذهب الشامي ، جزل الالفاظ ، متين التراكيب ، يتكلف الصناعة المعنوية ، والصناعة اللفظية مولع بالإغراب في تقصي أوجه المعاني وفي التشبيهات والاستعارات ، يملأ شعره بالإشارات التاريخية والفلسفية والنحوية ، ومعانيه المخترعة كثيرة "[24]، وفي هذه القصيدة المدحية يفتخر الشاعر بنفسه معتقدا أنه يجسد مرحلة التطور والابداع، مؤكدا على انطلاقته الجديدة وتمسكه بشخصيته العباسية وهو على دراية تامة بمشارق الارض ومغاربها ، ولاقى منها المتاعب والمصاعب ،فهو شاعر مديح وفخر. وقدم ذلك من خلال صورة فنية إبدع فيها.

فأخذ الشاعر يبدع ويطور في قصيدته فكتب في الرثاء والوصف والمدح والفخر، لذا سار بالشعر نحو الإبداع، منطلقا من ثورة بإنه كل شيء لابد أن يتطور ويتجدد ، نتيجة التطور الذي حصل في العصر العباسي، واستجابه لظروف العصر وحاجاته ، فراح يبتكر طرائق واساليب جديدة سواء ما تتعلق بالالفاظا والمعاني ، اوالأساليب . وقد خرج بالشعر عن صورته المألوفه وحلق به إلى ابعد من ذلك فأغرقه بالمحسنات اللفظية، والبديعية من جناس وطباق وتورية وغيرها ، واصبح شعره لايفهم إلا بأعمال الفكر ومجاهدة القريحة ، وان ماقام به ابي تمام لا (ليس) مواكبة الشعر فحسب، بل مواكبته للتطورات المتسارعة التي اصابة جوانب الحياة المختلفة، لاسيما الشعر كي لا يتراجع او ينزوي امام الفنون الأخرى ، فصار يقحم في هذا المضمار إلفاظا ومصطلحات وعبارات ثقافية مصوغة بلغة شعرية جميلة، فأضحت القصيدة عنده لونا جديدا ، إنها القصيدة المتوازية عقلا ووجدانا ، وبذلك اعطى القصيدة المذكورة انفآ وبريقا لامعا اتسم بالتجديد والحداثة، لذا فالشاعر قام بتمزيق الرتابة (تجاوز الرتم القديم الذي بلغ ذروته في العصر الأموي والعباسي) القديمة الذي بات مسيطرا على القصيدة العربية واحداث انقلاب في الشعر العربي [25] وقد قال عنه ابن رشيق القيرواني "ولقد جعل أبو تمام الشعر صناعة يتكلف الصناعة المعنوية والصناعة اللفظية ، ومولع بالأعراب في تقصي أوجه المعاني والتشبيهات والأستعارات التي تملأ شعره "[26]

ويعد الإبداع الذي تجلى في شعر الشاعر، وخروجه عن التقاليد القديمة، فهو أول من نسب الشيب للفؤاد ، ويتضح انه امتطى اجنحة الخيال، واماط اللثام لخياله الجامح، ليسافر في عوالم الماورائيات، ويتسربل في دهاليز المشاعر والشجون ، فقد واغرق (غرق) في عالم

المجردات بعيداً عن المحسوسات فتخيل السماء الصافية مطيرة تنهمر منها مرازيب الودق ، والغيث فيها صحوا تبصر فيه العيون النجوم ، وغير ذلك. لذا قال في مدح ابن الهيثم :

رفيق حواشي الحلو لو ان خلقه بكفيك ماما رايت في انه بردُ

وذو سورة تفري الفري ثباتها ولايقطع الصمصام ليس له حد

وداني الجد تأتي عطاياه من علَ ومنصبه وعرُ مطالعهُ جردُ[27]

ولم يقف إبداعه عند حد معين، فنراه يغرق قصائده بالمحسنات اللفظية، فضلاًعن التعقيد والغموض الذي يتجلى في شعره ، فقد تطور هذا الشعر وتطور معه صاحبه ، ولم يعد عملاً شعبيًا ، بل اصبح عملاً عقلياً راقياً ، فالشاعر ليس من واجبه أن ينزل إلى الجمهور ، بل يجب على الجمهور ان يصعد إليه[28] فمن شعر الموجه إلى النخبة فقد قال في مدح ابا سعيد محمد بن يوسف الثغري :

بين البين فقدها فلما ثغ رف فقد الشمس حتى تغيبا

لعب الشيب بالمفارق بل جد د فابكى تماظر ولعوبا[29]

وصفه النقاد بأنه " رب المعاني المبتكرة حتى انه لايوجد أحد من الشعراء يعمل المعاني ويخترعها ويتكى على نفسه فيها اكثر من أبي تمام"[30]

ان الخصائص الذي تميز بها العصر تركت اثرها الواضح في الشعراء الذين اطلعوا على النقاد بمذهب في البديع تكلفه مسلم وقتفه بشار وافرط فيه أبي تمام حتى صار صاحب منهج ، اثارخصومة نقدية كانت اكثر عنى واعظم فائدة واعود محصولا على النقد الأدبي عند العرب من أية خصومه أخرى ، وقد ارتبط أسم أبي تمام بحركة التجديد ارتباطاً وثيقاً حتى صار ذكر احدهما مدعاة لذكر الأخر غير أن نظرة النقاد القدماء إلى تجديد أبي تمام نظرة مختلفة ، فمنهم مناستحسن شعره واستجاده ، ومنهم من استهجنه وانحى عليه [31] في نص أخر يبدع فيه الشاعر :

كم جئتَ في الهيجَا بيوم ابيضٍ والحربُ قد جاءت بيومٍ أسوَدَا

أقدمتَ لَم تُرِكَ الحمِيةّ مَصدرًا عَنهَا وَلَم يَرَ فِيها قِرنُكَ مَورِدَا

لَم تُغمِدِ السيفَ الذِي قَلدتَهُ حَتى تَمَنى نصلهُ أن يُغمَدَا[32)

وقد أستعمل الشاعر في هذه الأبيات اللونين (الأبيض والأسود) لأخراج صورة شعرية في غاية الجمال وروعة التصور، فالهيجا هي انكسار لشكيمة الإنسانية وبلاء يدمر الحرث والنسل، وقد صور الشاعر الهوة بين النقيضين، ليبين الفرق بين الحياة والسلام والامان من جهة وبين الخراب والدمار والهجران من جهة اخرى، ويعد هذا التفريق هو من مقايس الجمال عند الشاعر وقدرته الإبداعية. فقد أستهل الشاعر نصه بالالفاظ البديعية ؛لأن هذه الالفاظ لها دور في تجديد المعنى وايصاله إلى المتلقي ، فالشاعر قام على تطويرها حتى اصبح شاعر الصنعة ، وهذه حركة تجديدية بالنسبه للعصر العباسي ، " وقد تصدر أبو تمام حركة التجديد واعطى لها من ثقافته واطلاعه وذكائه ماقرر منهجها وقوم فخامة لغتها على جزالة للسان العربي سالكا في التوليد والتجديد والبديع مافتق أبواب البلاغة للأجيال بعده "[33] وقد اتهم بعضهم اشعار الطائي بالغموض ، وان المتلقي لايفهم مايريده الشاعر ، وقد تناول ادونيس ذلك وقال " بما ان النص يبقى كما هو ، لايتغير ، فإن تهمة الغموض دعوة باطلة ،و قناع يخفي به

القارى ضعف ثقافته وقصورها غالبا، ويخفي إصراره على ان يفهم ماتغير بذهنية لم تتغير "[34]، فالغموض عند ادونيس ليس بما جاء به الشاعر ، وانما يرجع الى المستوى الثقافي عندالقارى ، وأن يجعل القارى يبحث ويجدد ويحاول أن يقيم ثورة على الثوابت ، ولأبد التطلع نحو المستقبل ، دون الرجوع إلى الماضي 0

والقصائد المدحية عند الشاعر إبداعية ، وقد اكثر من هذا الغرض ؛لأنه من الشعراء المادحين للخلفاء والامراء ، وقصائده فتح وإبداع في الشعر ، ففي أبيات وصف فيها المعركة الذي حدثت في الروم والذي انتصر فيها المعتصم ، وقد وصف أبو تمام المعركة :

السيف أصدق انباءً من الكتب في حده الحد بين الجِد واللعب بيضُ الصفائح لأسودُ الصحائفِ في مُتُونهن جلاءُ الشك والريَب والعلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعِةُ بيَن الخمسينِ لافي السبعةِ الشهبِ[35]

ارادأبو تمام في هذه الأبيات تصوير قدرة السيف على التفريق بين الشك واليقين والقوة والضعف، فبلسيف ترتفع الهمم وتزول القمم، وبالسيف يتوعد الشاعر عدوه بالسقوط عن صهوة جواده ليلامس خده الثرى. ففي هذه الصورة الشعرية يتجلى إشراق انفعالي لدى الشاعر ليجمع بين قدرة السيف وسطوته ومكانة العلم والمعرفة لدى الانسان. في هذه الأبيات لم يذكر الشاعر مقدمة يدخل من خلالها إلى الموضوع ، او اتباع فيها بعض الشعراء ، وانما دخل الى الموضوع مباشرةٌ وهذا إبداع بالنسبة لابي تمام ، ومثل ذلك من خلال صورة بديعية لعب الطباق دوراً رئيسياً فيها، ويرى شوقي ضيف أن أستخدام أبي تمام للطباق لم يكن استخداماً ساذجاً ، بل كان يستخدمه أستخداماً معقداً أذ يلونه بأصباغ فلسفية ماتزال تغير في إطاره ، وتنفذ به إلى لون جديد مخالف للطباق ، فإذا هو من الطراز الفلسفي فيه تنافر وأختلاف[36]) وقد يستخرج أبوتمام من الطباق صوراً نادرة ، يستخدمها في التعبير عن أفكاره العميقة، ففي أبيات يقول فيها :

قد غرستم غرس المودة والشح ناء في قلب كل قارٍ وبادى

أبغضوا عزّكم ووِدُّ وا نداكم فقر وكم من بغضةً ووِدادِ

لاعد متم غريبَ مجدٍ رَبقتمفى عُراه نوافرَ الأضداد(37)

أتى الشاعر في هذه الأبيات بضدين متنافرين وجمع بهما، فقد تأنق في جمع الاضداد واصبحت بالنسبة له لعبة لغوية ، وهذا مايطلقون عليه النقاد بالغموض الفني لكنهم لايبحثون بما فيه من الجمال " الشاعر كان يستخدم الثقافة والفلسفة في شعره استخداماً فنياً واسعاً ، يحاول بهما أن يحدث لنفسه أسلوباً متموجاً بالفكر زاهياً بالعقل شديد الحركة والحياة ، ومن الصعب أن نفسر مافي هذا الأسلوب من تموج عقلى ،فإن أبا تمام لايقف به عند جانب معين من ديوانه أو أبياته ، فهو ينشره فيها جميعاً كما ينشر الربيع خضرته على جميع النباتات والأشجار ، ونحن لانبالغ إذا قلنا إن شعر أبي تمام خير من مثل تصور ربيع الفكر العربي " (38)

وقد يستمر الشاعر في إبداعه ، وهذا يكمن في ابتكاره للمعاني وتوليدها ،بالإضافة إلى رثاءه الذي يتسم بالموسيقى والرقة ، وهذا يمثل قمة الإبداع عند الشاعر فيقول في رثاء محمد بن حميد الطوسي:

كذ فليَجِل الخطبُ ولَيَفدح الامرُ فليَسَ َ العِين لَمِ يفضِ ماؤها عُذرُ

توفيت الأمالُ وبَعَد مُحمد واصبحَ في شُغلٍ عَنِ السفَرِ

وماكان إلا مالَ مَن قل مالُهُ وَذُخرا لمِنَ امسى وَلَيسَ لَهُ ذُخرٌ[39]

في هذه الأبيات رثى الشاعر محمد الطوسي ، فيتحدث عن موته، وأنه قتل في إحدى المعارك ، فيحث كل عين على البكاء ، لأن بموته ماتت معه الأمال العظيمة ، فقد كان الفقيد عوناً لكل مايحتاجه اذ قل ماله أو أحتاج إلى مساعدة ، قدم ذلك من خلال صورة أستعارية شبه فيها الآمال بالإنسان ، لكنه حذف وأبقى على أحد من صفاته ، وهو(الموت)، وهذا القصيدة تدل على الحزن والألم والأسى ، وهذه إبداعية بالنسبة للشاعر قالها مباشرة من دون أن يعرج على الطلل 0

الخاتمة :

تستنتج الباحثة من دراستها عدة نتائج واهمها:

لا شك أن العصر العباسي هو عصر التحولات والتغيرات التي شملت الحياة بجميع مناحيها. ويعبر الشاعر أبو تمام عن ثقافة عصره وما أصابه من أحداث غيرت كثير من ملامحه ولا سيما الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية ، فتجاوز أبو تمام ماكان سائدًا وحلق بالقصيدة نحو التغيير والإبداع ، وقام على توليد معانٍ جديدة ، لكنه لم يقم ثورة على القصيدة التقليدية القديمة مثلما فعل أبو نواس ، وإنما انطلق منها مجددًا في صورها ، ومعانيها ، فبعضها بدأها بمقدمات طللية ولكنها مختلفة عن القصائد الطللية الجاهلية ، فقد تلقى النقاد شعره بين مؤيد وبين رافض ، فخروجه عن المألوف هي دعوة منه للمتلقي بالخروج عن التصورات ، والأعراف التقليدية القديمة ومواكبة روح العصر ، فقد أخذ الشاعر ينقل صور المجتمع ويطبقها في شعره ، وهذا إبداع بالنسبة له0

الهوامش :

1- الاداب العربية في العصر العباسي الاول، محمد عبد المنعم الخفاجي ، دار الجبل ، بيروت لبنان ط 1 1992 : 25 .

2- أدب الكاتب ، ابن قتيبة دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1988 : 10 .

3- الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، الامدي ، تح احمد صقر ، دار المصادر : 70.

4- ينظراخبارابي تمام ، ابوبكرالصولي تحقيق خليلي محمود معسكر :37-38.

5-النقد والحداثة ، عبد السلام المسدي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 1983:11.

6- زمن الشعر ، ادونيس ، دار الساقي ، بيروت ، ط6 ، 2005م : 43.

7- الابداع ، عابد خزندار ، الهيئة العامة للكتاب ، 1988م : 10.

8- الصورة الشعرية في شعر ابي تمام ، عبد القادر الرباعي : 12.

9- زمن الشعر : ادونيس : 167

10- الموشح ، المرزباني ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1965: 343.

11- سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، ط2، 1982: 161.

12- ديوان ابي تمام بشرح التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف مصر ، ط4، ج1: 157.

13- شرح المعلقات العشر،الزرزني منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، 1983 ص 91

14- الشعر العربي بين التطور والتجدد ، محمد بد العزيز الكفراوي ، مكتبة نهضة مصر : ط2، 1958: 86.

15- ديوان الشاعر 2/ 210.

16- المقدمة ، ابن خلدون ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) :574.

17- الديوان نفسه 2/ 450.

18-الديوان نفسه 1/ 391.

19 – ديوان ابي تمام 32/3.

20- ديوان ابي تمام 2/ 140.

21- ينظر : في الشعرية ، كمال ابو ديب :123.

22- ديوان الشاعر 1/ 140.

23- الديوان نفسه 1/ 122.

24- الشعروالشعراء ، ابنقتيبة:345.

25- تاريخ الادب العربي ، عمر فروخ ، دار العلم الملايين ، بيروت لبنان ، 1968: 253.

26- العمدة ، ابن رشيق القيرواني : 85.

27- ديوان الشاعر 2/ 170.

28-الفن ومذاهبه ، شوقي ضيف : 240.

29-ديوان الشاعر :2/ 158.

30- ابو تمام الطائي (فكره - وفنه) د0 عبدالله التطاوي ، الكويت ، 2014: 160.

31- شعرية ابي تمام ، مياده كامل ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 2011: 18-19.

32- ديوان الشاعر 2/ 105.

33- العصر العباسي الاول: 193.

34- زمن الشعر ، ادونيس : 168.

35- ديوان الشاعر 1/ 40.

36- ينظر :الفن ومذهبه ، شوقي ضيف : 279.

37- ديوان الشاعر 2/ 320.

38- الفن ومذاهبه : 244.

39- ديوان الشاعر 2 / 230.

المصادر والمراجع :

-اخبارابي تمام ، ابوبكرالصولي، تحقيق خليلي محمود معسكر،دارالمعارف مصر ، ط2.

- ابوتمام (فكرخ – وفنه) دعبدالله التطاوي ، الكويت ، 2014 0

- الإبداع ، عابدخزندار ، الهيئةالعامة للكتاب ، 1988م0

- تاريخ الادب العربي ، عمرفروخ، دارالعلم للملايين ، بيروت - لبنان ، 1968

-حركةالتجديد الشعري واليات التلقي ، عبدالقادرعبو ، مجلة الاسبوع الأدبي ، العدد 998، 2006.

- ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، ، تحقيق محمدعبدهعزام ، دارالمعارفمصر ، ط4 00

- زمن الشعر ، ادونيس ، دارالساقي ، بيروت ، ط6 ، 2005م 0

-سرالفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دارالكتب العلمية ، ط1 ، 1982.

- الشعرالعربي بين التطوروالتجدد ، محمد عبد العزيز الكفراوي ، مكتبة نهضةمصر : ط2، 1958

- شعريةابي تمام ، ميادة كامل ، وزارةالثقافة ، دمشق ، 2011م.

- شرح المعلقات العشر، الزرزني، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، 1983 .

-- الصورةالشعريةفي شعرابي تمام ، عبدالقادرالرباعي ،المؤسسةالعربية للدراسات والنشر ، ط2، 1999م.

- العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، دارالجيل للنشروالتوزيع ، ط5، 1981م.

- العصرالعباسي الاول ، دكتورشوقي ضيف ، دارالمعارف ، القاهرة ، ط80

- فلسفة المكان في الشعرالعربي ، د حبيب المونسي ، منشوراتحاد الكتاب ، دمشق ، 2001

- الفنومذاهبة في الشعرالعربي ، شوقي ضيف ، دارالمعارف ،مصر،ط7 .

- الموازنةبين شعرابي تمام والبحتري ، الامدي ، تحاحمدصقر ، دارالمصادر، ط4 0

- الموشح ، المرزباني ، دارالفكرالعربي ، القاهرة ، 1965.

- المقدمة ، ابن خلدون ، داراحياءالتراث العربي ، بيروت (د.ت)

-النقدوالحداثة ،عبدالسلام المسدي ، دارالطليعة ، بيروت ، ط1، 1983م.

-

.